خلاص الأمم
(روم ١١: ١١-٢٤)

الخوري جان عزّام

الإكليريكيّة البطريركيّة المارونيّة - غزير

Voir *Nature in our Biblical Heritage*

«وأنت، وقد كنتَ زيتوناً بريّاً، طُعِمت ...،
فصرت شريكَ الأصل في دسم الزيتون» (روم ١١: ١٧)

مقدّمة

محور الرسالة إلى أهل روما ان الايمان بيسوع المسيح هو أساس الخلاص لليهود وللوثنيين، كلٌ من موقعه واختباره الديني السابق (١: ١٦-١٧). فليس لليهود في المسيح أكثر ممّا للوثنيين، حتى لو كان لهم الفضل في الايمان والآباء والوعود التي حملت العالم إلى زمن مجيء المسيح (٩: ٣-٥)؛ واليهود أنفسهم كانوا يحتاجون إلى عمل المسيح الخلاصي بقدر ما كان يحتاجه الوثنيون، لأنهم جميعًا خطئوا وفقدوا الخلاص الإلهي: فهؤلاء لم يتبعوا ضميرهم الطبيعي الذي كان قادرًا ان يقودهم إلى معرفة الله والايمان به (١: ٢٠-٢١)، وأولئك خالفوا الشريعة ونقضوا العهد الذي أعطاهم الله إيّاه فصاروا تحت اللعنة (٢: ١٧-٢٧). هذه هي البشرى الإلهية التي يحملها بولس إلى اليهود والوثنيين معًا، وهي ان المسيح قد مات لأجل خطاياهم وقام لأجل تبريرهم (٤: ٢٤-٢٥)، فمن يؤمن ويعترف بأن المسيح هو الرب، يهوديًا كان أو وثنيًا ينال الخلاص (٩: ١٠-١٣)، ومن يرفض

الايمان يبقى تحت اللعنة قابعًا في جهل وثنيّته (١: ٢٢-٢٣) أو عاجزًا عن إدراك المسيح بسبب قناع الشريعة المتحكّم به (١١: ٧-١٠؛ رج ٢ قو ٣: ١٤-١٦).

أمّا الموضوع الخاص في الفصل ١١: ١١-٢٤ الذي نحن بصدد الكلام عنه هنا، فهو عظمة تدبير الله الخلاصي الذي استفاد من قساوة قلب اليهود ليفتح الكنيسة على العالم الوثني ويحرّرها من محدودية الشعب اليهودي.

١- رَفْضُ اليهودِ سبيلٌ إلى خلاصِ الأمم (آ ١١-١٥)!

أ- خلفيّة النص وموضوعه الأساسي

إنّ المشكلة الأساسيّة التي واجهتها الكنيسة منذ البداية هي التالية: هل تبقى مجرّد تيار ديني في قلب الديانة اليهودية كما هي حال التيارات الدينية الأخرى، كالفريسية والصادوقية وحزب الغيارى والأسينيين وغيرهم؟ بتعبير آخر، هل المسيح هو أحد الأنبياء اليهود المصلحين الداعين شعب الله إلى التوبة والإصلاح الداخلي من خلال أفكار جديدة وطرق عبادة جديدة، أم انه حقًا مرسل الله إلى العالم أجمع ليقود الشعوب كلّها إلى الخلاص الموعود به؟ وإذا كانت المسيحية ستنفتح على العالم وهي المتجذّرة في الإيمان اليهودي القديم والآباء والأنبياء، وهي التي على مثال مؤسّسها تكمل ولا تنقض، فما يكون مصير اليهود المؤمنين الذين احتقروا الشعوب الوثنية الأخرى لعدم إيمانها؟ هذا السؤال يجيب عليه بولس بنفي قاطع لأن يكون عثار اليهود بمثابة سقطة لا قيام لهم من بعدها!

وإنّما الله سيستفيد من زلّتهم ليمنح الخلاص للأمم، وسيُبقي باب الخلاص مفتوحًا لهم أيضًا لكي يعودوا فيؤمنوا بالمسيح ويكون إيمانهم سبيلاً إلى خلاص أشمل!

ب- درس بعض المفردات الأساسيّة

في آ ١١ يستعمل بولس تعبير paraptoma للكلام على زلّة اليهود في عدم إيمانهم بالمسيح. وهذا التعبير كان قد استعمله مرّة أولى في روم ٥: ١٥-١٨ ليصف به زلّة آدم. وفي الفصل الخامس يشدّد بولس كثيرًا على زلّة آدم، وإن أَفْضَتْ إلى دخول الخطيئة والموت إلى العالم، ولكنّها كانت أيضًا المناسبة التي استفاد منها الله ليهب العالم النعمة بيسوع المسيح، «حيث كثرت الخطيئة فاضت النعمة!» (٥: ٢٠). وكما يوضح بولس لاحقًا فليس الله هو الذي أراد زلّة آدم (٦: ١)، بل انه القادر أن يحوّل الزلّة لدى البعض إلى نعمة لدى الآخرين، بل لدى الخاطئ نفسه ان هو استقبل النعمة.

هذا هو حال إسرائيل، فإن زلّته لا تعني بالضرورة نهايته، بل هي مثل زلّة آدم يستطيع الله أن يقيمه منها! ولا هي قادرة أن توقف عمل الله، بل سيستعملها الله ليفيض النعمة على الشعوب الوثنية وعلى اليهود أنفسهم عند رجوعهم إليه. أمّا سبيل رجوع اليهود إلى الله فسيصير من خلال «إثارة غيرتهم» التي يعبّر عنها بولس بفعل parazelomi، وذلك تلميحًا إلى نص من سفر التثنية ٣٢: ٢١ يُفهم منه ان الله يريد أن يساعد إسرائيل على فهم واقع خطيئته وتمرّده من خلال دعوة أمّة وثنية للإيمان به، فيفهم إسرائيل خطيئته ويقبل التوبة! هذا إذًا هو رجاء بولس أن يفهم إسرائيل عصيانه لله بعدم إيمانه بالمسيح، عندما يرى أنّه هو الذي خسر بعدم إيمانه، بينما العالم الذي كان يحتقره ويعتبره جاهلاً للإيمان، قد اغتنى بالإيمان، وانه هو الذي نقص وانحسر، والعالم قد ربح! هنا يستعمل بولس تعبير hettima الذي لا يعني بالضرورة النقصان العددي بل الفشل، أي عدم الوصول إلى الغاية المنشودة، ويستعمل بالمقابل تعبير pleroma (الاكتمال) الذي لا يصير إلاّ بالإيمان بالمسيح. اعتقد ان تعبير الاكتمال هنا يوازي «شالوم» بالعبرية التي هي غاية الإيمان اليهودي نفسه. وكأن بولس يقول ان «الشالوم» الذي يرغبه اليهودي ويسعى إليه طيلة حياته سيناله في المسيح، وبدونه سيبقى في النقصان. في آ ١٥ يعود بولس إلى صورة جديدة ليصف فيها واقع عدم إيمان اليهود، فيعتبره «إبعادًا»، بينما يصف إيمان الوثنيّين «بالمصالحة». هكذا، فابتعاد اليهود سمح للوثنيّين بالعودة إلى حظيرة الله، بينما عودة اليهود إلى الإيمان لاحقًا ستكون بمثابة zoè ek nekron، أي قيامة جسديّة من بين الأموات. لا أعتقد أن بولس يريد أن يربط بين اهتداء اليهود مجدّدًا إلى المسيح وبين نهاية العالم وقيامة الموتى، وهذا تفسير غير دقيق للنص. وأعتقد مع كثير من المفسّرين أن بولس يعتبر ابتعاد اليهود من الإيمان المسيحي بمثابة «سبي»، وهذا هو المقصود بتعبير apobolé autôn (إبعادهم). والمعروف ان حزقيال قد صوّر السبي بمثابة موت كامل لشعب الله، ولكنّه يصف عودتهم إلى أرض الميعاد بمثابة قيامة من الأموات (حز ٣٧).

٢- خلاص الأمم عطيّة مجانيّة، لا للكبرياء بل لمخافة الله (آ ١٦-٢٢)

أ- خلفيّة النص وموضوعه الأساسي

ليس اليهود وحدهم المتعصّبين لقوميّتهم، وليسوا وحدهم الذين أساؤوا فهم لاهوت الاختيار المجّاني. فقد وقعوا في الاستكبار بسبب اختيار الله لهم لخدمة الشهادة له بين الأمم على انّه الله الأوحد (أش ٤٣: ١٠-١٢؛ ٤٤: ٨) ولدعوة الأمم إلى الإيمان، وحوّلوا الاختيار المجّاني للخدمة إلى سبيل لاحتقار الأمم والابتعاد عنها! ولكن الأمم بدورها قد تقع في مثل هذا الاستكبار عندما يصلها نور المسيح وتعطى كلمة البشارة مجانًا، وبدلاً من شكر الله على هذه العطيّة المجّانية التي نقلتهم من ظلام الخطيئة إلى نور الإيمان، وبدلاً من مخافة الله الذي لا محاباة للوجوه عنده، فإن المؤمنين من أصل وثني قد يقعون هم أيضًا في نوع من احتقار وازدراء لليهود بسبب عدم إيمانهم. فهم أيضًا قد يقعون في التعصّب والمعاداة لشعب آخر، مستغلّين رحمة الله لهم مناسبة ليفقدوا الرحمة تجاه قريبهم. فلاهوت المسيحيّة الأساسي هو ما فعله المسيح في صليبه، أي انه صالح الإنسان مع الله وصالح الإنسان مع أخيه الإنسان؛ وليست المسيحيّة دعوة إلى عداوة شعب آخر أو أمّة أُخرى أو عنصر بشري آخر؛ وليست المسيحيّة ازدراء للآخرين أو اتهامًا لهم أو انتقامًا منهم لخطايا ارتكبوها! إنّها إعلان مصالحة تامّة ودعوة للجميع إلى السلام، أي الاكتمال والملء في المسيح يسوع. وبهذا المعنى يقول بولس إلى أهل أفسس، وهم من أصل وثني: «أذكروا أنّكم بالأمس، أنتم الوثنيّين بالجسد، أنتم الذين كان أهل الختان يسمّونهم أهل القلف، لأن جسدهم ختن بفعل الأيدي، اذكروا أنّكم كنتم حينئذٍ من دون المسيح، مفصولين عن رعيّة إسرائيل، غرباء عن عهود الموعد، ليس لكم رجاء ولا إله في هذا العالم، أمّا الآن ففي المسيح يسوع أنتم الذين كانوا بالأمس أباعد قد صرتم أقارب بدم المسيح، فإنّه سلامنا قد جعل من الجماعتين جماعة واحدة، وهدم في جسده الحاجز الذي يفصل بينهما، أي العداوة... بعدما أحلّ السلام بينهما... ويصلح بينهما وبين الله، فجعلها جسدًا واحدًا بالصليب وبه قضى على العداوة...» (أف ٢: ١١-١٨).

إذًا، فإن كان اليهود قد رفضوا صليب المسيح وتشكّكوا منه لأنّه دعاهم إلى المصالحة مع الوثنيّين، فالمسيحيّون من أصل وثني يبطلون صليب المسيح الذي به نالوا الخلاص ان هم استعملوه كوسيلة عداوة واستكبار.

ب- دراسة بعض المفردات الأساسيّة

عندنا في آ ١٦ كلمة aporkhy (الباكورة)، وكلمة hriza (الأصل)، وكلّ واحدة تتحكّم بصورة: فالأولى هي صورة العجنة التي تختمر من خميرة الباكورة المقدّسة، والثانية هي صورة الفروع التي تتغذّى وتنمو من خلال الأصل المقدّس.

وفي الحالتين يطرح السؤال عمّن يعنيه بولس هنا في الباكورة والأصل؛ فهل يقصد الشعب المختار كلّه، حتى الذين لم يؤمنوا بالمسيح؟ لا شكّ ان لبولس حبّاً خاصاً لتاريخ شعب الله وقداسة عمل الله فيه ومن خلاله: فمن لا يذكر الآباء والقدّيسين والأنبياء وشهداء الإيمان؟ وهذه القداسة ما برحت فاعلة في هذا الشعب بالرغم من عدم إيمانه، ولعلّها تصبح هي سبيلاً إلى اهتدائه يومًا إلى القداسة الكاملة بالمسيح. غير انّي أرجح أن يكون المقصود أيضًا وبالأخص أولئك اليهود الذين آمنوا بالمسيح وصاروا يشاركون في قداسة المسيح (روم ٧: ١). ولعلّ قداسة هؤلاء المكتملة بالإيمان تصبح في ما بعد سبيلاً إلى قداسة الذين لم يؤمنوا، وبهم يهتدي كلّ الشعب المختار إلى المسيح.

في مطلق الأحوال، فالصورة هنا تفتح بابًا للرجاء بانضمام اليهود إلى الإيمان المسيحي، ان بالارتكاز على قداسة آبائهم الأقدمين التي هي الخميرة والأصل، أو بالارتكاز على مثل القلة من اخوتهم، مثل بولس، الذين آمنوا وصاروا شهودًا على ان اكتمال كلّ قداسة هو بالمسيح فقط.

في آ ١٧، يهمل بولس صورة الباكورة ويركّز على صورة الشجرة أصلاً وفروعًا، مؤكّدًا أن المسيحيّة قد وجدت على الأصل الذي هو التاريخ الخلاصي وإيمان الآباء والأنبياء والذي اكتمل بالإيمان في المسيح يسوع.

فليست المسيحيّة إذًا من الوثنيّة ولا من أي أصل آخر سوى تاريخ الخلاص الذي عاشه الشعب المختار، ولأنّها كذلك فهي تكمل من جهة بفروع طبيعيّة، أي اليهود الذين آمنوا بالمسيح، ومن جهة أُخرى بفروع برّية مُطَعَّمة على الأصل، أي الوثنيّين الذين آمنوا: إنّها شجرة جديدة، وهي إسرائيل الله

الحقيقي الذي يكمل التاريخ الخلاصي. فيها قطعت الفروع التي لم يؤمن بالمسيح، وفيها زرعت فروع برّية وأثمرت لأنها ارتبطت بالإيمان بالمسيح (رج يو ١٥): إذًا فالإيمان بالمسيح هو من الآن وصاعدًا الميزة التي تميّز شعب الله الجديد، ان كان من أصل يهودي أو من أصل وثني. والإيمان بالمسيح هو الذي يبقي الفروع يانعة ومثمرة، لأنّها تغتذي من الأصل الواحد الذي هو يسوع المسيح، قمّة التاريخ الخلاصي، وأكمل كلمة إلهيّة كلّم بها الله العالم، وهو الذي جسّد في شخصه كلّ الإيمان الذي ظهر في تاريخ الآباء والأنبياء وهو الذي يحقّق بشخصه كلّ الوعود لينالها مجّانًا كلّ إنسان مؤمن به.

ينهي بولس هذا المقطع بالآيات ٢٣-٢٤ مؤكّدًا ان خلاص إسرائيل والشعب القديم ممكن وأكيد ان هو آمن بالمسيح، لا بل يعتبر ان اهتداءهم إلى المسيح أسهل من اهتداء الأمم، لأنّ هؤلاء إنّما طُعّموا خلافًا للطبيعة، فكم بالأحرى من سيُطعّمون بحسب الطبيعة؟!

خلاصة

هناك خدعة كبيرة يحاربها بولس الرسول في تبشيره وفي رسائله عامّة وفي رسالة روما بشكل خاص: هذه الخدعة هي عند الذين يرتكزون على انتمائهم القومي ليعادوا، باسم الله، الشعوب الأُخرى. أوّل من وقع في هذا الفخ هم أكثريّة الشعب اليهودي عندما نسوا أن الله اختار إسرائيل ليكون خادمًا بإيمانه في سبيل إيمان الشعوب كافة. وهذا المنطق القومي اليهودي كان السبب في ابتعاد إسرائيل عن الأمم وحتى عن أبنائه الذين اختلطوا بالأمم! صار إسرائيل وكأنّه أهمّ من الآخرين وأعظم منهم، مع ان الله هو الذي وهبه الإيمان والآباء والأنبياء، وهو الذي حوّله من مجموعة عبيد إلى شعب مؤمن! هذا التيار القومي اليهودي المتعصّب يمكن الردّ عليه بتعصّب مماثل من قبل المسيحيّين من أصل وثني، فيقابلون الكبرياء بالكبرياء والقوميّة بقوميّة مضادة والعنصريّة بعنصريّة مضادة! وهذا ما يحذّر منه بولس المؤمنين من أصل وثني داعيًا اياهم إلى مخافة الله وعدم إبطال صليب المسيح الذي، ان كانوا يؤمنون به، فيجب أن يحرّرهم من كلّ حواجز العداوة المبنيّة على العنصريّة والقوميّة وغيرها! اليوم أيضًا هناك تياران واضحان يحاربان المسيحيّة ويحاولان عن جهل أو معرفة إبطال صليب المسيح:

- التيار الأوّل يمثّله أولئك الذين يستعملون الفصل ٩-١١ من رسالة بولس إلى أهل روما، وبحجة الحوار مع اليهود، ليدّعوا ان مواعيد الله لاسرائيل ما زالت هي هي، وان المسيحيّة ليست سوى جزء من التاريخ اليهودي الذي هو الأساس والذي هو المرجعيّة الأولى. فكأن المسيح لم يحقّق وعود الآباء والأنبياء، وكأن المسيح هو الجزء وليس الكلّ! حتى ان بعضهم وصل إلى درجة اعتبار الإنجيل مجرّد تفسير (مدراش) للعهد القديم، كباقي التفاسير اليهوديّة الأُخرى التي سبقته والتي تبعته!!!
- أمّا التيار الثاني، فينفي باسم محاربة الصهيونيّة والتعصّب اليهودي كلّ أعمال الله الخلاصيّة في التاريخ، في العهد القديم وفي حياة الآباء والأنبياء والقدّيسين الذين أوصلوا الإيمان، وان ناقصًا، إلى المسيح الذي أعطانا الإيمان الكامل! انّهم يريدون أن يقطعوا المسيحيّة من جذورها لتصبح مجرّد فكرة فلسفيّة أو تعاليم أخلاقيّة مثاليّة عن المحبّة.

إن المسيحيّة بريئة من هؤلاء ومن أولئك! بالنسبة إلينا، المسيحيّة تبدأ منذ الفصل الأوّل من سفر التكوين، وتاريخها هو تاريخ شعب الله حتى المسيح، ومنه حتى يومنا هذا. المسيحيّة هي إسرائيل الله الحقيقي، إسرائيل الإيمان، وان كان إسرائيل الجسد ما زال موجودًا، فنحن نرجو من الله أن يقوده إلى كمال الإيمان، ولكنّنا نعتبر مع مار بولس انه ما زال مقطوعًا عن الشجرة الحقيقيّة، أي الكنيسة، وهو بحاجة إلى أن يُطَعَّم فيها من جديد لكي يثمر!

بالنسبة إلينا، ليست المسيحيّة قوميّة ولا عنصريّة ولا عداوة لأي إنسان بسبب انتمائه، بل هي كصليب المسيح منفتحة الذراعين لتضمّ بالمحبّة كلّ الشعوب، ولتصلّي إلى الله ليعطي الحياة بالمسيح إلى كلّ الشعوب. فحذار «أن نبطل صليب المسيح»!

المراجع:

VIARD A., *Saint Paul, épître aux Romains* (Sources bibliques, Paris, 1975).

LYONNET S., *Etudes sur l'épître aux Romains* (Analecta biblica 120, Roma, 1989).

SAN GIOVANNI CRISOSTOMO, *Commento alla lettura di San Paolo ai Romani*, II (Siena, 1971).